نزهة النفوس ومضحك العبوس

هذا عنوان ديوان(1) ألفه شاعر مصرى يسمى ابن سودون، وقد كان يعيش فى القرن التاسع الهجرى، كان إماما ببعض المساجد، إلا أنه اتخذ الهزل منهجا له فى حياته، فطار اسمه وتنافس الظرفاء فى الحصول على شعره الذى يذهب كله مذهب الضحك والفكاهة. وقد عنى أخيرا بجمع هذا الشعر فى ديوان وأضاف إليه طائفة من الحكايات والملافيق، كما يقول هو فى مقدمة هذا الديوان، وهو يملؤه بضروب من القصائد والموشحات والزجل والدوبيت وأنواع من المواليا مضيفا إليها طائفة من الطرف العجيبة والتحف الغريبة.

وقد بنى أغلب الديوان من اللفظ العامى، وهو من هذه الناحية يسجل جانبا له أهميتــه فى تاريخ لغتنا الشعبية المصرية ، فإن من يطلع عليه يرى أنه لا تكاد توجد فوارق بين لغــة هذا الديوان ولغتنا المصرية المحلية الحديثة.

ولكن الشيء الذى يلفتنا حقا فى هذا الديوان هو أنه ألف كله فى ضروب من الهــزل والدعابة، ولسنا نعرف شخصا قبل ابن سودون كتب ديوانا من الشعر كله يأخذ مأخذ الفكاهة، أو على الأقل لسنا نعرف فى مصر شاعرا احتكره الهزل هذا الاحتكار. حقا أن فى الخريــدة شعراء فاطميين يعتدون بالفكاهة فى شعرهم، وكذلك الشأن فى العصر الأيوبى، ولكننا لا نجد شاعرا يخصص نفسه بالهزل هذا التخصيص الذى نجده عند ابن سودون.

والحق أن ابن سودون شخصية طريفة فى تاريخ أدبنا المصرى، لأنه يفصح إفصــاحا واضحا عن مزاج المصريين فى هذا الجانب الذى تشتهر به مصر فى عصــورها المختلفــة. وإن من يقرأ هذا الديوان يلاحظ أن صاحبه كان يعتمد فى فكاهاته على المفارقة، فهى المفتاح الذى ينصب منه جميع نغم الهزل فى الديوان. وقد كان يسلك الــى هــذه المفارقــة طريقــة واضحة، هى أن يقف بين يديك موقفا جادا يريد أن يروى لك بعض العجائب، ولكنه ما يبــدأ فى ذكرها حتى تحس مفارقة ونبوا وشذوذا عن منطق الحوادث، وبذلك تسترسل فى الضــحك لا لسبب إلا لأنك تشعر كأنك فقدت توازنك، فقد كنت على أهبة أن تستمع لأشياء غريبة، فإذا بك تستمع لأشياء كأنها بديهية لكثرة ألفتنا لها وصلتنا بها. ومن هنا يأتى الضحك لأن الحقائق تصعد أمامنا وتهوى وكأنها تهوى من أمكنة عالية، هى أمكنة المنطق الواقع، فنضطرب معهــا ولا نلبث أن نضحك فى غير نظام، بل فى فوضى كفوضى الكلام الذى نسمعه. وانظــر إليــه يقول :

إذا ما الفتى فى الناس بالعقل قد سما   تيقن أن الأرض من فوقها السماء
وأن السما من تحتها الأرض لم تزل   وبينهما أشيا متى ظهرت ترى
وإنى سأبدى بعض ما قد علمته   لتعلم أنى من ذوى العلم والحجى
فمن ذاك أن الناس من نسل آدم   ومنهم أبو سودون أيضا وإن قضى
وأن أبى زوج لأمى وأننى   أنا ابنهما والناس هم يعرفون ذا
وكم عجب عندى بمصر وغيرها   فمصر بها نيل على الطين قد جرى
وفى نيلها من نام بالليل بله   وليست تبل الشمس من نام فى الضحى
بها الفجر قبل الشمس يظهر دائما   بها الظهر قبل العصر بلا مرا
وفى الشام أقوام إذا ما رأيتهم   ترى ظهر كل منهم وهو من ورا
بها البدر حال الغيم يخفى ضياؤه   بها الشمس حال الصحو يبدو لها ضيا
وتسخن فيها النار فى الصيف دائما   ويبرد فيها الماء فى زمن الشتا
وفى الصين صينى إذا ما طرقته   يطن كصينى طرقت سوا سوا
بها يضحك الانسان أوقات فرحه   ويبكى زمان الحزن فيها إذا ابتلى
ومن قد رأى فى الهند شيئا بعينه   فذاك له فى الهند بالعين قد رأى
وفيها رجال هم خلاف نسائهم   لأنهم تبدو بأوجههم لحى
ومن قد مشى وسط النهار بطرقها   تراه بها وسط النهار وقد مشى
وعشاق إقليم الصعيد به رأوا   ثمارا كأثمار العراق لها نوى
به باسقات النخل وهى حوامل   بأثمارها قالوا يحركها الهوى
وعندى علوم بعد هذى كثيرة   تدل على أنى من الناس يافتى
وما علمتنى ذاك أمى ولا أبى   ولا إمرأة قد زوجانى ولا حما
ولكننى جربتها فعرفتها   وحققتها بالفهم والحذق والذكا
فيابخت أمى بى ألا يا سرورها   إذا سمعت أنى أفوق على جحا

أرأيت كيف يغمس ابن سودون هزله فى ليقة المفارقات، فإذا الفكاهة تستوى له على هذه الصورة المتناقضة، فهو يبدأ حديثه بأن الانسان إذا سما عقله أخذت تدخل عليه هذه اليقينيات من مثل أن الأرض من فوقها السماء وأن السماء من تحتها الأرض، وأن بين السماء والأرض أشياء متى انكشفت لنا رأيناها. وليس هذا كل ما يقف عليه الانسان حين يسمو عقله، فإنه يقف أيضا على أن الناس من نسل آدم وأن أبا صاحبنا زوج لأمه. وماذا من الجدة فى هذه اليقينيات ؟ إنها لا تحتاج الى سمو فى العقل أوما يشبه السمو، غير أن ابن سودون يستغل ذلك نفسه ليحدث لك المفارقة حين تسمع وصف هذه الأشياء وأنها تحتاج الى عقل راق، ثم تقرأ فإذا أنت أمام حقائق أولية. وإنه ليحاول أن يأتى بأبسط ما يمكن من هذه الحقائق ليجعلك تغرق فى الضحك. ويتطرق ابن سودون من هذه المقدمة الى بيان ما رآه فى البلدان المختلفة من عجائب، وهو يبدأ بمصر فيروى لك حقائق عامة مألوفة، ولكنك ما تقرؤها حتى تضحك لأنه عرف كيف يعبث بمنطقك حتى تضحك هذا العبث الذى جعله يقص عليك أن الفجر بمصر يظهر قبل الشمس، وأن الظهر يمر بنا قبل العصر. وإنه ليؤكد ذلك كأنه شىء مشكوك

فيه، فيقول إنها حقيقة "بلا مراء". وينتقل ابن سودون بسامعه من مصر إلى الشام فيروى له أن بها : ناسا ظهر كل منهم وراءه، كأن الناس على قسمين، قسم هذا الذى يراه فى الشام، وهو قسم غريب، ولذلك وقف ليدلنا عليه وعلى مبلغ ما رأى هناك من غرائب، أما القسم الآخر فقد سكت عنه لأنه مفهوم ومعروف، وهو إنما يروى المجهول غير المعروف. هذه قصة الناس هناك، أما بدرهم فإن ضياءه يستتر حال الغيم وأما شمسهم فإن ضياءها ينتشر حال الصحو، وهناك تسخن النار فى الصيف ويبرد الماء فى الشتاء، كأن ذلك كله شىء خاص بالشام. ويترك الشام الى الصين فإذا هو يحدثنا أن بها صينيا يطن مثل ماذا ؟ "كصينى طرقت سوا سوا". هل جاء ابن سودون بشىء ؟ إنه كما يقولون فسر بعد جهد جهيد الماء بالماء، وهو يستمر فى هذه المفارقة، فالناس فى الصين يضحكون فى أوقات فرحهم ويبكون فى أوقات حزنهم، وينتقل من الصين الى الهند فيحدثنا أن من رأى هناك شيئا بعينه، فقد رآه بعينه ! هل قال ابن سودون شيئا أكثر من أنه غالطنا، فإذا هو يعيد ما قاله فى الشطر الأول فى الشطر الثانى. وما من شك فى أنه حاول أن يغرب ما وسعه الأغراب حين أخذ يعرفنا بأن الرجال هناك يختلفون عن نسائهم اختلافا بيناً لما لهم من لحى، كأن اللحى خاصة من خواص رجال الهند دون سواهم. وأعجب من ذلك وأغرب أن من يمشى هناك وسط النهار تراه وسط النهار وقد مشى، وهى مغالطة طريفة. ويعود ابن سودون الى مصر أخيرا فيتكلم عن إقليم الصعيد ويعجب أن به ثمارا كأثمار العراق لها نوى، أرأيت الى هذا النظير أو قل هذا القياس الدقيق ؟ إنها علوم ابن سودون الكثيرة كما يقول، تلك العلوم التى تجعله يقتنع بأنه من الناس، ولقد تعلمها باجتهاده ورحلاته، وما تعلمها من أم ولا أب بل ولا من زوج ولا من حما، وإنما تعلمها من طريق تحقيقه وفطنته وذكائه، وإنه ليهنىء أمه بنفسه مرددا أنه يفوق على جحا. وحقا أنه كان جحا القرن التاسع الهجرى، ولم يكن يعتمد فى جحويته على النوادر والنكت كما كان يعتمد جحا، بل كان يعتمد على هذا الفن من الهزل الذى لا نبعد إذا قلنا إنه تفوق فيه لا على جحا وحده بل على كل من سبقوه. وهو فن - كما رأينا - كان يعتمد على المفارقات المنطقية. وربما كان من أطرف القطع التى تصور ذلك قوله فى رثاء أمه :

لموت أمى أرى الأحزان تحنينى — فطالما لحستنى لحس تحنين
وطالما دلعتنى حال تربيتى — خوفا على خاطرى كيلا تبكينى
أقول نمنم تجى بالأكل تطعمنى — أقول أمبو تجىء بالماء تسقينى
إن صحت فى ليلة وأوأ لأسهرها — تقول : ها ها : بهز كى تننينى
كم كحلتنى ولى فى جبهتى جعلت — صوصو بنيلى وكم كانت تحنينى
وربما شكشكتنى حين أغضبها — وبعد ذا كشكشتنى كى ترضينى
ومن فقيهى أن أهرب ورام أبى — مسكى وبعثى له كانت تخسبينى
وزغرطت فى طهورى فرحة وغدت — تنثر الملح من فوقى وترقينى

وفى زواجى تصدت للجلاء عنى على المنصة تلقانى بتزييـــــــن
وربت أولادا أيضا مثل تربيتــى وبعد ذلك ماتت آه وأنينـــــــــى
وخلفتنى يتيما إبن اربعـــــــة وأربعين سنينا فى حسابينـــــــى
يعظم الله فيها الأجر لى وكـــذا فى فى من بعدها جودوا بأمـــــين

وما من شك فى أن كل من يستمع الى هذا الرثاء يغرق فى الضحك، لأن ابن سودون اعتدى على الموقف التقليدى فى مثل هذه الظروف اعتداء شديدا أو قل اعتداء صـارخا. وأى عدوان أبعد من هذا العدوان الذى نجد فيه شخصا يقف بإزاء أمه – وقد لبـت نـداء ربهـا – ليرثيها وكأن كل كلمة فى رثائه تعبر عن دمعة تنحدر من عينه، فإذا هو يترك ذلك كله ومـا يتصل به من حشمة ووقار الى مظهر جديد لم تره عند أحد من قبله، وهو مظهـر لا يتصـل بالحزن ولا بالرثاء، وإنما يتصل بالفرح والسرور، كأنما يتحدث إلى أمـه فـى أحـد أعيـاد ميلادها، وهى قائمة بين يديه تستمع الى طرفه فتضحك، وقد تغرب فى الضحك لأنه بعـد أن بلغ اربعا واربعين سنة يحدثها عن ذكرياتها القديمة. وهذه المخالفة فى الموقف ومـا تنطـوى عليه من مفارقة هى أساس فكاهة ابن سودون فى هذه القطعة. وأرجع الى مطلعها فانك تـراه فى الشطر الأول من مقطوعته يكاد ينهد من حزنه أنهدادا فقد قوسه الحادث وحناه. ولكنـك لا تقرأ الشطر الثانى حتى تجد المفارقة، فإذا هو يذكر كيف كانت أمه "تلحسـه لحـس تحنـين" وكيف كانت "تدلعه" خوفا على "خاطره". ونستمر فإذا هو يحكى لغة الأطفال ذاكرا أنـه كـان حين يقول نمنم تأتى أمه له بالأكل وحين كان يقول أمبو تأتى لـه بالمـاء. أرأيـت صـرامة الموقف وما يمليه على ابن سودون ؟ إنه لا يملى هذه الفكاهة وما يطوى فيها من ضحك فـى موضع الرثاء وما يطوى فيه من حزن. ولا يكتفى ابن سودون بذلك إذ نراه يعمد الى محاكـاة بكاء الأطفال وما يقترن بهذا البكاء من هز أمهاتهم لهم وقولهن ها ها ونحو ذلك. ثم يسترسـل فى الحديث عن حنو أمه عليه وكيف كانت تكحله وكيف كانت "تحنيه" ثم كيف كانت "تشكشـه" وكيف كانت "تشكشه". ثم يقص علينا كيف كانت "تخبيه" حـين يهـرب مـن الفقيـه وأنهـا "زغرطت" يوم طهوره وزينته يوم زواجه. وأخيرا يعلن أنها خلفته يتيما ابن أربعة وأربعـين سنينا، كما يقول. وكل هذه مفارقات، فهو يتيم وهو فى الوقت نفسه ابن أربعة وأربعين، وهـو باك وهو فى الوقت نفسه ضاحكا، بل إنه ليضحك حتى يخرج بضحكه الى هذا الهـزل ومـا يتصل به من فكاهة. وفى أى موضع يصنع ذلك ؟ فى الرثاء أو بعبـارة أخـرى فـى أكثـر المواقف دعوة للحزن وأشدها استثارة للبكاء، وهو بلا ريب يجرح هنا شعورنا، لما اصطلحنا عليه فى مثل هذا الموضع، لكنه جرح ينتهى بنا الى أن نضحك بل الى أن نغرق فى الضـحك لأنه جاء على غير أهبة وبدون انتظار، وإنه ليغلو فى ذلك غلو البله. وهذا هو وجه طرافتـه

وجمال فكاهته. وارجع الى ديوانه فستجده دائما يعتمد على هذه المباينات بين ما تنتظره وما يستقبلك به من أشعاره. ومن أطرف ما جاء من ذلك وصفه لحفلة زواجه إذ يقول :

حل السرور بهذا العقد مبتدرا .. ونجم طالعه بالسعد قد ظهرا
والكل كلل وجه الأرض فانعطفت .. أغصانه بالتهانى تنثر الزهرا
والطير من فرحها فى دوحها صدحت .. بكل عود عليه لا ترى وترا
تقول فى صدحها دام الهنا أبدا .. على العرايس كى يقضوا به الوطرا
وكنت عند زفافى قد وصلت الى .. حد الأشد وعقلى فى الورى اشتهرا
فكنت أعرف من عقلى وكثرته .. أنى إذا نمت مع ظهرى يكون ورا
هذا وعقل عروسى كان أصغر من .. عقلى ولكن حوت فى عمرها كبرا
فى السن قد طعنت ما ضر لو طعنت .. بالسن من رمح أو سيف إذا بتر
فى لونها نمش، فى أذنها طرش .. فى عينها عمش للجفن قد سترا
فى بطنها بعج، فى رجلها عرج .. فى كفها فلج ما ضر لو كسرا
فى ظهرها حدب فى قلبها كدر .. فى عمرها نوب كم قد رأت عبرا
ياحسن قامتها الموجا إذا خطرت .. يوما وقد سبسبت فى جيدها شعرا
تظل تهتف بى : حسنا حظيت بها .. أواه لو حاشها موت لها قبرا

وأنت تراه يعمد فى هذه القطعة الى المفارقة حتى يستخرج ما يريد من هزل وفكاهة. فقد بدأ شعره بالسرور وطالع السعد وما كان من مشاركة الطبيعة والطير للعروسين فى فرحهما، وما تستمر حتى تراه يعمد الى التباله بل إنه ليعلنه، فعقله على كثرته لم يكن يعرف به إلا أنه إذا نام كان ظهره من ورائه، ومع ذلك فعقله أكبر من عقل زوجه. وقد ذهب بعد ذلك يعرض علينا زوجة هذه فى صورة مشوهة لا تنسجم مع مطلع شعره، وهذا هو معنى ما نقوله من أنه يعمد الى ضروب من المفارقة والتباين فى هزله، فبينما هو فى مستهل هذه القطعة يملأ الجو بشرا وابتساما لهذا الزواج السعيد، إذ هو يملؤه بعد ذلك كآبة وغما واكفهرارا ولما صدم شعورنا به من وصفه لهذه الزوج القبيحة التى جمعت فنون القبح كلها. وهو يعمد الى المبالغة فى هذه الفنون حتى يستتم ما يريد من إضحاك وتفكه. وأمعن النظر فى القطعة فانك تجده يقف أثناء وصفه لقبح هذه الزوج المسكينة ليظهر إعجابه بقامتها على ما فيها من عوج ، بل على ما فى صاحبتها من بعج وعرج وفلج وحدب ! وهذا هو التباين أو هو المفارقة التى تنبع منها فكاهة ابن سودون، وإنها لمفارقة تميزه من نظرائه الفكهين فى الشعر العربى، بل فى الشعر المصرى نفسه، فنحن لا نعرف أحدا سبقه الى هذا التقنن الواسع

فى استخدام المفارقة على هذا النحو فى شعره، فإذا هو يتحول كله الى هذه الطرائف الفكاهية. وقد كان ابن سودون يدمج فى هذه المفارقة ضروبا من التباله وإظهار الغفلة كما مر فى الأمثلة السابقة وعلى نحو ما نجد فى قوله :

البحر بحر والنخيل نخيل .. والفيل فيل والزراف طويل
والأرض أرض والسماء خلافها .. والطير فيما بينهن يجول
وإذا تعاصفت الرياح بروضة .. فالأرض تثبت والغصون تميل
والماء يمشى فوق رمل قاعد .. ويرى له مهما مشى سيلول

وهو لا يأتى بشىء غريب ومع ذلك فإن شيئا من الضحك يلم بنا، لأن ابن سودون جمع لنا فى هذه القطعة أقرب الاشياء من حسنا وذهب يرويه فى هذا الضرب من البله والسذاجة، وهى سذاجة هيأته لأن يصف كل ما يتصل به حتى لغة الأطفال يجدها فى شعره كقوله :

ولما أن كبرت يحمد ربى .. وصار لمنتهى عقلى ابتداء
بقيت أقول ننو ننو تاته .. ودحو كخ وانبو مم آء

فقد حشد فى البيت الثانى كل ما يمكن من لغة الأطفال، وله فى هذا الباب طرف كثيرة. وقد حكى فى ديوانه كثيرا من أصوات الحيوانات، إذ نراه يقلد صوت الخروف والبقرة، وقد قلد صوت الأوز مرارا. ومن طرفه قوله فى "كتكوت" :

شريت لى كتيكيت .. فميمو بزيق
عريين يصبح .. من البرد زيق
لو حليق فيه زماره .. وحنيك فيه نقاره
يزمر ينقر .. دويحك رشيق
أقول لو كتكت .. يكتكت يجى
يرفرف يزقزق .. لحسو زعيق
لو جناح لاح من جنبو .. كلما انشرح لولح بو
غليظ البطينة .. ولو ساق رقيق
كبر صار شويطن .. يناقر أخوه
ويعلم لأختو .. قبيح فى الطريق

وما من ريب فى أن هذه قطعة خفيفة، وإنها لتعبر عما امتاز به ابن سودون من حاسة الفكاهة التى لا نجد لها نظيرا بين من عاصروه، فقد كـان يعـرف كيـف يجمـع الصـفات والخصائص لكل شيء يعالجه، وكانت تسعفه فى ذلك مخيلة لاقطة تعرف كيف تضم أشـتات الصورة بعضها الى بعض. وقد تعلق - بجانب ذلك - بوصف الأطعمة والتحدث عنها تحـدثا يشوبه الجشع بل تشوبه "الفجعة". وله بعد ذلك مواليات كثيرة لعل من أغربها قوله :

التور والبقرا ذى العام ومن قبله .. فى مصر والشام وف غزه مع الرمله
هديك تحبل وتولد عجل أو عجلة .. وذاك فى الساقيا ياكل بفرقله

وإن الإنسان ليخيل إليه أن ابن سودون لم يترك شيئا فى حياته يمكن أن يستخرج منه لونا من ألوان الفكاهة إلا بعثه وعرضه أمام نظارته وقرائه. وقد ساق فى ديوانه مجموعة من الحكايات والطرف النثرية، وإنها لا تقل غرابة ولا إضحاكا وتفتنا فى الإضحاك عما روينـاه من شعره بل لعلها تتفوق فى كثير من جوانبها على هذا الشعر.

فقد عقد فى ديوانه للنثر بابين : أما أولهما فباب الحكايات الملافيق، وأما الثانى فبـاب التحف العجيبة والطرف الغريبة. والبابان جميعا كتبا باللغة المصرية ، وهما من هذه الناحيـة لهما أهمية خاصة، فإن من يقرؤهما لا يحس بونا بعيدا بين لغتنا الحديثة ولغة ابن سودون فى القرن التاسع الهجرى. ولسنا بصدد الحديث عن هذه الناحية، فهى لا تهمنا الآن، إنما يهمنا أن نستعرض الأدوار المضحكة التى مثلها صاحبنا فى ديوانه، وهى أدوار تقوم علـى المجـون والهزل، مستمدا ذلك من المفارقات المنطقية، وهى مفارقات تعتمد قبل كل شيء علـى فنـون من التباله وإظهار الغفلة، فما نلبث حين نلم بالديوان أن نضحك، ونغرب فـى الضـحك، لأن ابن سودون يحسن كيف يتبابى، وهو غباء ينتهى بنا الى إهمال عقولنا، فنضـحك لا سـخرية ولا استخفافا، ولا كما يقول بعض الأوروبيين عقوبة له لأنه خالف منطقنا، وأصـبحنا نحـس كأنه آلة جامدة، بل لعلنا نضحك، لأننا نريد أن نكافئه إذا استطاع أن يخرجنا قليلا من عالمنا. ومن منا يذهب الى ممثل هزلى ليعاقبه بضحكه على شذوذه ؟ إنما نذهب لنسر ولنتمتع حقبـة من الزمن بالانتقال قليلا من عالمنا الى عالمه الذى تنعدم فيه - إلى حد ما - قيمنـا المنطقيـة ولتحل محلها قيم أخرى لا تستمد من منطقنا المألوف، وإنما تستمد من منطق آخر، إن صـح هذا التعبير، وهو منطق يقوم على التباين والشذوذ . واستمع الى هذه النادرة التى يريها ابـن سودون فى باب الحكايات الملافيق :

"قال ابن غيدشة الزلابيانى : كنت - وأنا صغير - بليدا لا أصيب فى مقال، ولا أفهـم ما يقال، فلما نزل بى المشيب زوجتنى أمى بإمرأة كانت أبعد منى ذهنا، إلا أنها أكبـر منـى

سنا، وما مضت مدة طويلة حتى ولدت، والتمست منى طعاما حارا، فتناولت الصحفة مكشوفة، ورجعت الى المنزل آخذ الكبة (غطاء الصحفة) ونسيت الصحفة، فلما كنت فى السوق تذكرت ذلك، فرجعت وأخذت الصحفة ونسيت الكبة، وصرت كلما أخذت واحدة نسيت الأخرى، ولم أزل كذلك حتى غربت الشمس، فقلت : لا أشترى لها فى هذه الليلة شيئا، ودعها تموت جوعا، ثم رجعت إليها، وإذا هى تئن وإذا ولدها يستغيث جوعا، فتفكرت كيف أربيه وتحيرت فى ذلك، ثم خطر ببالى أن الحمامة إذا أفرخت وماتت ذهب زوجها والتقط الحب، ثم يأتى ويقذفه فى فم ابنه، وتكون حياته بذلك، فقلت : لا والله : لا أكون أعجز من الحمام، ولا أدع ولدى يذوق كأس الحمام. ثم مضيت وأتيته بجوز ولوز، فجعلته فى فمى، ونفخته فى فمه فرادى وأزواجا، أفواجا أفواجا، حتى امتلأ جوفه، وصار فمه لا يسع شيئا، وصار يتناثر من أشداقه، فسررت بذلك وقلت لعله قد استراح، ثم نظرت إليه، وإذا به هو قد مات، فحسدته على ذلك، وقلت يابنى : أما قد انحط سعد أمك، وسعدك قد ارتفع، لأنها ماتت جوعا وأنت مت من الشبع، وتركتهما ميتين، ومضيت آتيهما بالكفن والحنوط، ولما رجعت لم أعرف طريق المنزل، وها أنا فى طلبه إلى يومنا هذا".

أرأيت كيف يستخرج ابن سودون منا الضحك بفكاهته، وما يتقن وصفه من بلاهة صاحبه الزلابيانى وغفلته. وانظر إليه كيف جعله ينسى الكبة ويأخذ الصحفة، ثم مازال بعد ذلك كلما أخذ واحد منهما فى الأخرى فى تباله غريب، وإنه لتباله يدفعنا إلى أن ننسى منطقنا، فإذا بنا نضحك لأننا استرحنا قليلا من هذا المنطق الذى يتعبنا فى حياتنا، وأخذنا نضرب مع ابن سودون فى عالمه الجديد. أتظن أننا بضحكنا نحتقره أو نزرى عليه، أو نحس برغبة فى انتقام منه، أو أننا نريد - كما يقول بعض النفسيين - أن نعاقبه فضحكنا تنفيس أو تعبير عن ذلك ؟ إن هذا فى الواقع يعد فى الخيال والتصور. ومالنا ولهذه المعانى السيئة ؟ لقد كنا نستطيع أن نؤمن بذلك لو أننا نحس بشىء من الوجدة على ابن سودون، ولكنا لا نحس بذلك، بل نحس إزاءه بعطف، بل بشىء من المودة، فإننا نتمنى أن لو كان معنا الآن لنرى كيف يستغل حاضرنا فى دعاباته وفكاهاته. وانظر إلى ما يخلعه على الزلابيانى من تباله، إذ جعله يطعم وليده الجوز واللوز حتى قضى عليه قائلا إنه مات شبعا فى حين ماتت أمه جوعا. ثم يذهب لإحضار كفنين لهما ! ولكن صاحبه سرعان ما ينسى البيت، وتخونه ذاكرته فيفقد كل دليل يدل عليه.

والحق أن ابن سودون كان جعبة فكاهة، فأينما قلبت طرفك اندفعت تضحك ضحكا عاليا، ونحن نسوق للقارىء إحدى نوادره فى باب التحف العجيبة والطرف الغريبة، وهى كتاب كتبه على لسان أحد أبناء الصعيد إلى أبيه فى مصر وهو يمضى على هذا النحو :

"قال هو ثقة بن بطاطة بن كجيج : أرسل فنين بن أبى المدارس إلى أهله كتابا من الصعيد يقول فى عنوانه : يصل – إن شاء الله تعالى – إلى دربنا المحروس الذى ضبتو سنط ولقيه، ويسلم ليد البيت، مطالعة الوالدة، وفى داخله السلام عليكم عدد ما فى نخيل البلد من أوراق، وعدد أمواج البحر إن تكدر أو راق، سلام كثير لا يسعه طبق ولا طبقين ولا أطباق، أطول من مقود زرافعة، ولو كان طاق أو طاقين أو ثلاث أطواق، من كل بدو سبب .. والذى أعرفكم به إن كنتو لسع بالحيا أنى أرسلت لكم صحبة القاصد على جوز وزفقس الصيف من ذلك الوزة، وأيضا خروف أبلق وخروف بلا بلاق، ويا سبحان الله ! تبقوا تتكلموا جزاف : أرسلتم تطلبوا حبل تنشروا عليه الغسيل، وقلتوا لنا على طوله، وما قلتوا على عرضه ! وارسلتم تطلبوا كشك، وأنا إن أرسلته لكم من غير طبيخ فضيحة، وإن طبخته ما يوصل لكم حتى يبرد .. وطلبتوا قليلات والفلاحين ما يزرعوا إلا قرع طويل، فيكون ذلك فى خاطركم. من حقه بلغنى أن امرأتى حبلة، فلا تخلوها تولد حتى أجى، وإن ولدت قبل ذلك لا يكون إلا صبى .. وجرت لى حكاية، وذلك أنى غسلت قميصى ونشرته فى السطوح، فقام بالأمر المقدور. ضربه الهوا، فوقع من فوق لتحت، وارتجفت بسلامتى رجفة .. وعرفت أن ما هى بشارة خير، وأنها تدل على موت أمى وأبويه والحمد لله كانوا فدايه ! وأنى صليت وصمت لله تعالى إللى ما كنت فى قميصى، ولو كنت فيه كنت انكسرت، فقلت : حوالينا ولا علينا ! ولكن من الرجفة وجعتنى عينى اللى تبقى ناحية المشد وقت أخرج من دارنا. والذى نعلم به الوالد زوج الوالدة أنى دخلت يوم البستان أنا والخولى فرأيت فيه نخل شى طويل، وشى قصير، وشى ما يشبه شى، فقلت له : دى إيه قال بلح، قلت ودى قال نبق، قلت ودى قال جميز، قلت ودى قال مشمش، قلت ودى قال توت، ورأيت ياأبويه نخلة فيها كل ورقة قدر الصحفة، فقلت له ودى إيه فقال لى موز، فعجبنى قوى، وقلت له الموز يطلع فى البستان، فقال لى أيوه، فقلت له والجبن المقلى يطلع فيه، قال : يطلع فى دكان الجبان. وأنت تعرف إن بيتنا على دكان الجبان، وأنا كل يوم أجى وأطل من الطاقة وعمرى ما رأيت فى الدكان نخيل جبن مقلى، وكابرت الخولى وراهنتو من دجاجتى الرقادة لنعجتو الحبلة، فالوالد يبصر لنا إن كان الخولى غلبنى. والذى أعرفكم به كمان أنى لما طلعت البلد ولقيت الصابون غالى بعت فرسى البيضة، واشتريت لى حمارة سودة حتى لا تتوسخ. وبس كلام، فإنى لو كتبت الذى فى خاطرى كله كان الكتاب يجى من هون لفين. بعد السلام على أهل الحارة، كل واحد وحده، كتير كتير، بتاريخ صبيحة يوم الجمعة الحرام بعد صلاة التراويح من يوم عاشورا السابع والثلاثين من جمادى الأوسط سنة تاريخه، وبالأماره مطرت المطره، وأهل البلد كلهم يعرفوا، إن شاء الله".

وواضح أن ابن سودون كتب هذا الخطاب باللغة الدارجة لعصره، وهى لا تختلف كثيرا عن لغتنا الدارجة الآن. وقد جاء فيه بلازمة معروفة لأهل الصعيد إذا أبدل الهاء فى

لسه (عينا) فقال لسع، وأيضا فنحن نجد فيه بعض لوازم أهل الشام ككلمة "من هون". وكأنما كان المصريون فى عصر ابن سودون مثلنا الآن يضحكون من بعض اللوازم فى لهجة إخواننا أهل الشام، ومن أجل ذلك يستظهر ابن سودون هذه اللوازم فى بعض هزله. ولكن ليس هذا هو ما يضحكنا فى ديوان ابن سودون ولا فى هذا الكتاب الذى أرسله فنين إلى أبيه، إنما يضحكنا ما يعمد إليه من تباله، وها هو ذا يحاول بكل ما يستطيع أن يجعل صاحبه مثلا أعلى للبله والمغفلين، فقد بدأ كتابه بهذا العنوان : "يصل - إن شاء الله - إلى دربنا المحروس الذى ضبتو سنط ولفية". وهذا هو كل ما استطاع فنين أن يجعله عنوانا لكتابه، فقد عرف بالدرب الذى أرسله إليه، وهو درب ضبة بابه سنط ولقية، ونستمر فى قراءة الخطاب، فإذا هو يستشكل على أبيه، إذ أرسل يطلب منه حبل غسيل، وقد اكتفى بأن يذكر له طوله، ولم يذكر له عرضه ! وكذلك أرسل فى طلب كشك، ولم يقل له كيف يرسله، وهل يرسله مطبوخا أو غير مطبوخ، وأيضا فإنه سأله بعض قلل، وكأنه لا يعرف أن الفلاحين لا يزرعون قللا، وإنما يزرعون قرعا طويلا. وهذه كلها استشكالات تفسر تفسيرا واضحا عقل فنين وما يسمه من بله وغفلة، وهو يمضى على هذا المنوال فيحمد الله أن وقع ثوبه من فوق بعض السطوح ولم يكن فيه، وإنه ليسترسل فى غفلته فإذا هو يتخذ من ذلك دليلا على موت أبيه وأمه ! ويستمر فيذكر أنه ارتجف بسبب حادثة ثوبه رجفة رمدت بسببها عينه، ويريد أن يقول اليمنى أو اليسرى فلا يسعفه بلهه، فيقول إنها العين التى تكون بإزاء ناحية المشد حين خروجه من بيته، ولا نصل الى هذا الموضع من الكتاب حتى تستهوينا هذه الغفلة فى فنين فنتابعه وإذا هو يقص أنه دخل بستانا ورأى فيه أشجارا من أنواع شتى، وقد ذهل حين رأى هذه الأنواع وأداه ذهوله أن يسأل الخولى أين يطلع الجبن المقلى، كأنه تصور الجبن المقلى فاكهة مثل المشمش والموز وسرعان ما عرف الخولى فيه هذا الذهول، بل قل هذه الغفلة وذلك البله فتندر عليه قائلا : إن الجبن المقلى يطلع فى دكان الجبان، وذهب فنين ينظر فى طاقة تطل على دكان الجبان ليرى نخيل الجبن الذى حدثه به الخولى، فلم يجد شيئا فذهب براهنه من دجاجته لنعجته. وإن ابن سودون ليستمر فإذا صاحبه يذهب الى السوق فيجد الصابون مرتفعا سعره، حينئذ تسول له بلاهته أن يبيع فرسه الأبيض ويشترى مكانها أتانا سوداء حتى لا تتسخ. وأخيرا يؤرخ خطابه هذا التاريخ المشوش، إذ يؤرخه السابع والثلاثين من جمادى الأوسط. فانظر الى هذا الخلط فى التاريخ، وكل ذلك أراد ابن سودون أن يصور تصويرا دقيقا حال بعض أهل الريف فى عصره، وما هم عليه من غفلة، فاختار فنينا هذا ليبلغ من هزله كل ما يريد. وكما يتندر ابن سودون على أصحاب الريف من أهل الصعيد فى عهده نجده كذلك يتندر على الفقهاء وغيرهم من علماء عصره الذين كانوا يعنون بالمناقشات اللفظية وما يتصل بها من كثرة اعتراضاتهم وبيانهم لما تفترق فيه الأشياء وتجتمع، وأنهم ليبالغون فى ذلك حتى

ليصلون بين أشياء متباعدة لا تخطر على بال أحد. وقد ذهب ابن سودون يتفكــه ويتنــدرعلى هذا الصنيع فى كثير من جوانب طرفه وتحفه، فتارة يأتى بمثل نحو قول العامة : أبو قــردان زرع فدان ملوخيا وباذنجان، ويشرحه شرحا مفصلا على طريقة علماء اللغة، فهو يتكلم عــن ألفاظه ويخرجها من الوجهة الاشتقاقية تخريجا كله هزل ودعابة، وتارة أخــرى نــراه يقــف ليوجه مسألة دقيقة، ونحن نذكر مثالا لذلك هو حديثه عن الفرق بين المركب والفرس لينجلــى لك هذا الجانب المضحك فى ديوانه :

"إن من عرف العلم بتحقيقه، وانعجنت فكرته بدقيقه، علم أن بين المركــب والفــرس فرائق من كم وسن، الفرق الأول أن المركب أثقل من الفرس بدليل أن الفرس إذا حملوها على فرس أخرى تقدر تحملها ولو حملوا المركب على فرس ما قدرت الفرس تحملهــا .. الفــرق الثانى أن المركب أكبر بدليل أن الفرس إذا وضعت راسها عند رأس المركب لا يصل ذنبهــا الى ذنب المركب، وأيضا فإن المركب ينام عليها الواحد بالطول والعرض وإيش ما خطر لــه بخلاف الفرس. وأيضا فإن المركب ينام على ظهرها واحد وعشرة وأكثر فظهر الفــرس مــا هى كده. وأيضا فلفظ فرس ف ر س ولفظ مركب م ر ك ب، فمركب أزيد بحــرف والزائــد أكبر من الناقص. الفرق الثالث أن الفرس لها سمع وبصر، تسمع من صاحبها إيش مــا قالــه لها، وتبصر كيف تحط رجلها، والمركب ما هى كده. الفرق الرابع أن الفرس لها أربع قــوائم تندار بهم إن خطر لها من هون لهون، والمركب ما هى كده. ولا يرد على هــذا الصــندوق والسرير بأن لكل واحد أربع قوايم، ولا يندار، لأن الكلام فيما يركــب، والســرير وإن كــان يركب،إلا أنه لا يركب للسفر، والكلام فيما يركب للسفر. الفرق الخامس أن بطــن المركــب معوقة فى الميه وبطن الفرس مسيبة، إلى غير ذلك من الأفراق".

وهذه الفكاهة لا تجد صداها فى نفس القارىء إلا إذا كان قد اطلع على حذلقة أصحاب الشروح والحواشى وعرف اعتراضاتهم وكثرة ما يورده المحشى على الشارح ! ومــا نظــن أحدا بلغ من التندر على علماء العصور الوسطى وانشغالهم بالمناقشات اللفظية ما بلغــه ابــن سودون، فقد ذهب يحاكيهم فى بعض حكاياته الفكاهية ينقل طرقهم ومصطلحاتهم، وقد هيأ لــه ذلك أنه كان إماما ببعض المساجد وكان على حظ واسع من علوم القوم وفنونهم. وانظر إليــه وقد استفتاه بعضهم عن الدجاجة هل هى من البيضة أو البيضة من الدجاجة، فأفتاه على هــذا النحو الذى نرويه برمته عنه إذ قال :

"ولا نقل عندى فى هذه المسألة، والأمران محتملان، والأظهر أن الدجاجة كانــت أولا ثم باضت وحصل التناسل، ومما يؤيده الحدوتة المشهورة، وهــى أحــدتك حدوتــة، بالزيــت ملتوتة، كان يا ما كان، فى قديم الزمان، أولاد حمدان، يطلبوا نانا، والنانا فى التنور، والتنــور يريدلو حطب، والحطب فى الجبل، والجبل يريدلو فاس، والفاس عند الحداد، والحداد يريــدلو

بيضه، والبيضه فى الدجاجه، والدجاجه تريد لها لقط، واللقط فى الحظيره، والحظيره تريد لها مفتاح، والمفتاح عند رباح، مايجى من الساعة لشق الصباح. فقال والبيضه فى الدجاجه، ولم يقل الدجاجه فى البيضه، ولا يختص هذا بالدجاجه بل الوزه كذلك أيضا. وإنما كتبت الحكاية هنا لعزتها".

وواضح أنه يستخدم مصطلحات الفقهاء فى فتاواهم من مثل لا نقل عندى فى هذه المسألة، والأمران محتملان، والأظهر، ولا يختص. وقد ذكر الاصطلاح المشهور فى لغتنا الدارجة عن من يحكون الحكايات إذ قال : أحدتك حدوتة بالزيت ملتوتة، وقال أيضا : كان يا ما كان فى قديم الزمان. أما الحكاية نفسها فلها صور كثيرة تشبهها فى عاميتنا الحديثة. وعلى هذا النمط كان ابن سودون يداعب أصحاب العلوم والفنون فى عصره كما كان يداعب غيرهم من أهل مجتمعه : الريفيين وغير الريفيين. ولم ينس أن يلهج بحديث لأحدب بغدادى حكى فيه لغته ولهجته فى صورة هزلية بديعة، وكذلك تمثل بشعر على طريقة بعض الأعاجم الذين كانوا يزورون مصر فى العصور الوسطى وقد حشد فى شعره بعض ألفاظهم كى يتقن دعابته. والحق أن ابن سودون كان فكها من الطراز الأول، وقد لا نغلو إذا قلنا إنه أهم فكاهى ظهر بمصر قبل عصرها الحديث. وقد كان يتخذ منهجا واضحا فى فكاهته وهو منهج كان يعتمد على المفارقات المنطقية من جهة، كما كان يعتمد على كل ما يمكن من غفلة وبلاهة من جهة أخرى، ولم يكن يحتال لذلك بأشياء خيالية بل كان يعمد الى واقع حياته ومجتمعه، فيتخذ منهما ما يريد من هزله. والطريف أنه كان يجد فيهما دائما مادة غزيرة لفكاهته ودعابته، إذ كان يعرف كيف ينقل أقرب الأنباء والموضوعات منه الى أدوار هزلية مضحكة فإذا هى وقد تبدلت وجوهها وأصبح كل ما يتصل بها ينشر الضحك والفكاهة. وكان يسوق ذلك فى طريقة خاصة، إذ كان مايزال يخرج من عبث الى عبث، ومن مألوف الى مألوف، ومن غريب الى غريب، ومن بله وغفلة الى بله وغفلة. حتى ليضطرب توازننا، ونحس كأننا قد خرجنا من عالمنا الى عالم آخر هو عالم ابن سودون، وهو عالم تضطرب فيه الأشياء والأفكار اضطرابا مضحكا على نحو ما نجد عند ممثلى عصرنا الهزليين فى أدوارهم الفكهة وصورهم المضحكة.

عبد العزيز جمال الدين